من أوراق الرئيس(16)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

سطور لمترنيخ كتبتها في الزنزانة من 30 عاماً

كما هي عادة الرئيس السادات: يتوقف بعض الوقت، يتلفت حوله ووراءه ليعرف أين هو من الطريق الطويل الذي يسير فيه...

ومن المصادفات الغريبة أن يقلب الرئيس السادات في كراسة لديه يحتفظ بها منذ أيام السجن.. الكراسة من ورق صغير مسطر أصبح أصفر اللون. وما يزال خاتم السجن واضحا عليها. وفي نفس الوقت ما تزال هذه السطور شديدة الوضوح. أما تاريخ هذه الحروف فيرجع إلى سنة 1947.. هذه السطور باللغة الإنجليزية، إحدى اللغات التي يتقنها الرئيس السادات...

والعجيب أن هذه السطور لرجل سياسي بارع عاش في القرن التاسع عشر وظهر على المسرح الأوروبي وكان له هدف واحد: توازن القوى بين الشرق والغرب.. بين روسيا وفرنسا...

هذا الرجل هو كلمنت مترنيخ وزير خارجية النمسا، وهو في نفس الوقت تلك الشخصية التي بهرت وزير خارجية أمريكا بعد ذلك بقرن ونصف: هنري كيسنجر والذي يقرأ ما كتبه كيسنجر عن معبوده النمساوي هذا.

فإنه لم يجد مفتاحا لشخصية كيسنجر وتفسيرا لأسلوبه في توازن القوى، وأسلوبه في التفاوض القائم على الفهم والصبر والحركة المستمرة...

وكيسنجر قد أتاح للرئيس السادات فرصة أن يتأمل كل الذي فعله أسلافه من وزراء خارجية أمريكا، وكيف فشلوا حيث نجح هو، وفي نفس الوقت كانت كل خطوة يقوم بها كيسنجر إلى الأمام، تؤدي إلى خطوة مماثلة إلى الوراء في العلاقات السوفيتية المصرية...

وإذا كان كيسنجر ينادي بضرورة "سيولة" القنوات بين جميع الأطراف ليصبح قادراً على الذهاب والإياب، فإن الموقف يصبح أصعب مع السوفيت. فقد حرصوا على تجميد القنوات.. أي تحويل الجليد إلى حديد... ليظل الرئيس السادات يدق حديدا باردا، أو ينفض الجليد عن الحديد حتى اليوم... وغدا.. وبعد غد!.

لابد أن هذه الفترة التي نعيشها بعد حرب أكتوبر كنز للمؤرخين. ففيها أطراف ومحاولات كثيرة لحل الموقف أو تعقيده.

فهي قضية متعددة الخيوط. وكل جوانبها قابلة للالتهاب في أية لحظة، ليبدأ كل شيء من جديد.

وربما كان عيب المؤرخين أنهم متشائمون لأنهم ينظرون إلى الجانب الأسود الدامي من هذه الصورة، ولا تلفتهم إنجازات كثيرة تمت على مهل وفي هدوء...

وأتذكر عبارة للمؤرخ الأمريكي المشهور ول ديورانت يقول فيها: إن التاريخ نهر له ضفتان. وفي مجرى النهر تطفو جثث وتتعالى صيحات ونار ودخان ودموع... وينظر المؤرخون إلى مجرى النهر.. وينسون أنه على الضفتين قامت مزارع ومصانع ومدارس ومتاحف....

ولكن الإنسان عندما يكون في قلب الأحداث، أو في مصنع الأحداث، لا يرى ما حوله بوضوح... لا يدري إن كان يحرك الأشياء أو يتحرك معها...

وكيسنجر هو الذي قال: إن الحاكم هو الذي يجلس أمام عجلة قيادة في سيارة اسمها التاريخ... فهو يحرك ويتحرك معا..

وكيسنجر أيضا هو الذي قال في واحد من كتبه: أن السياسي هو إحدى أدوات القدر..

ولكن عيب هذا الرأي الأخير أنه يجرد السياسي أو الحاكم من صفات شخصيته ومن صفات شعبه وظروفه ومن التاريخ العام للجميع...

ومن المناسب أن أتوقف بعض الوقت عند هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والشرق العربي والعالم كله.. وأعود – كما هي عادتي دائماً– أتلفت ورائي . لأرى أين كنا ؟ ... وأين نحن؟ .. وأين نذهب بعد ذلك؟... ولا أدعي أنني أملك ناصية كل الأمور، ولا أحد يدعي ذلك..

وأول ما ألاحظ أنه فجأة قد تغير الممثلون على مسرح السياسة الأمريكية...

فبعد دالاس جاء روجرز وبعد روجرز جاء كيسنجر .. ومن مقارنة الثلاثة يبدو لنا كيسنجر أفضلهم جميعا.

وأقدرهم على الفهم، وهو لذلك أقدرهم على أن يحقق النجاح.

وأرى أن روجرز كان سيئ التقدير. أو على أحسن الاحتمالات كان ساذجا. فقد كان على يقين من أن إسرائيل سوف تقبل المبادرة التي تقدمت أنا بها. ولا أعرف على أي أساس أقام روجرز هذا اليقين. ولذلك لقى ما يستحقه ما عقاب. فقد هاجمته السيدة جولدا مائير في الكنيست . وظلت تطارده حتى طردته من وزارة الخارجية... وقد أعطته درسا في الأدب أو في الأخلاق.

وكان الدرس عنيفا.

ولكن إذا كانت السذاجة جريمة في السياسة والدبلوماسية، فالكوارث هي العقوبة. وكان روجرز كارثة على نفسه.

ولم أجد في روجرز شيئا يبهر من يتحدث إليه. فلم يكن على درجة كبيرة من فهم القضية. ولذلك كان كالمحامي الذي ذهب إلى المحكمة ليترافع وليس في يده دوسيه واحد، وهو قد أعد دفاعه عن الجانب الذي يمثله.

وفي قضايا التاريخ يكون القاضي أسرع في اتخاذ القرار. والذي يريد أن يستوقف التاريخ، يدوسه التاريخ... وقد داسته الأحداث...

وقبل روجرز كان دين رسك. وقد دعاني في سنة 1966 لزيارة أمريكا. وجلست معه كثيرا وطويلا. ولكن لاحظت أن الرجل قد أراح نفسه تماما، فلم يشأ أن يدخل معي في صلب الموضوع. بل كان يتفادى الدخول بعبارة غامضة. أو بنكتة. أو بتحويل اهتمامي إلى أي شيء آخر.

وظننت أول الأمر أن الرجل ليس مفوضاً في أن يفاوضني أو يناقشني. أو أنه لم يدرس القضية تماماً. أي أنه ليس مستعدا لذلك.

غير أني عرفت فيما بعد أن الرجل على صلة عميقة باليهود. وأنه قد اتخذ جانب إسرائيل. وأنه لذلك لم يشأ أن يفتح حواراً مفيدا معي... فإسرائيل لم تفوضه في ذلك.. وقد اعترف بذلك ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل. ومعنى ذلك أن صمت دين رسك لم يكن تفاديا لموقف، بل كان موقفا محددا.

وهذان الرجلان راسك وروجرز يدخلان التاريخ من باب ضيق. لأنهما من الوزن المتوسط أو دون المتوسط... فلم يكن من الممكن أن نتوقع معهما أو على يديهما شيئا يحرك القضية أو يساعد على تحريكها أو حلها...

وفي الدبلوماسية الأمريكية سوف يخصصون صفحات طويلة لرجل يعتبرونه قمة الدبلوماسية هو : فوستر دالاس. فهذا الرجل قد تخصص في دراسة القانون الدولي. تعلم في جامعات أمريكا وفي جامعة السوربون الفرنسية. وكان ضمن الوفد الأمريكي في مؤتمر الصلح في فرساي... واشتغل بالمحاماة والدراسات الدولية حتى اختاره ايزنهاور سنة 1953 وزيرا للخارجية.

وبهذا الرجل دالاس اتخذت أمريكا سياسة تقوم على العنف، أو على التهديد بالعنف. فقد كانت أمريكا أقوى دولة في العالم فجرت نواة اليورانيوم والهيدروجين والكوبالت.. وكان أسلوبه في السياسة الخارجية إظهار أنياب ومخالب أمريكا. فلا يجرؤ أحد أن يتقدم خطوة ويحمل سلاحه ليحارب أمريكا أو يشعل حربا عالمية.. ومن عباراته المشهورة: إن قدرة أمريكا على الردع يجب أن تكون مكثفة حتى تمنع قيام الحرب بأي شكل من الأشكال...

وقال أيضاً وترددت عباراته في الدنيا فملأتها فزعا ورعبا: أن قدرتنا على الوصول إلى حافة الحرب دون التورط فيها، لهي قمة الفن السياسي.. وإذا نحن لم نتفوق في هذا الفن، فسوف ندخل الحرب لا محالة. وإذا حاولنا أن نهرب منها، أو تخوفنا من الإقدام عليها، كان مصيرنا الضياع.

ومعنى ذلك أن دالاس يخيف روسيا وأمريكا في نفس الوقت.. ويخيف بقية دولة العالم..

ومعنى عبارات دالاس: أننا لم نقم بتخويف العالم كله باشتعال الحرب، أو إذا ترددنا في ذلك، فسوف تقع الحرب لا محالة أي لا سبيل للوقاية من الحرب سوى التهديد بها... أي سوى أن يهدد هو العالم كله بذلك ..

وقد وصفت سياسته بأنها سياسة (توازن الرعب).

وربما كان تشرشل هو أول من استخدم هذا التعبير بعد أن أطلقت أمريكا قنبلتها الذرية على اليابان .. فأشار إلى أن السوفيت قد حصلوا على القنبلة الذرية، فسوف تتعادل قوى الرعب النووي في العالم كله...

وهذا الرجل – دالاس– هو المسئول الأول عن سوء فهم مصر أو تسؤى العلاقات المصرية الأمريكية . فكان من حماقة هذا الرجل أن هاجم سياسة عدم الانحياز. أي هاجم العالم الثالث كله. فهو يرى أن الدولة الصغيرة أو الدول كلها يجب أن تقف شرقاً أو غربا. أما إذا وقفت بين الشرق والغرب، فهذه سفالة أخلاقية. وهو رجل متشدد ومتزمت. ولذلك لا يفهم أن يكون الإنسان وطنيا قوميا لا هو مع الشرق ولا مع الغرب.. أي لا يجري ويدوخ في الفلك الروسي، ولا يجري في الفلك الأمريكي..

ولعلي كنت أشير إلى هذا عندما تحدثت في الكونجرس الأمريكي قائلا: أنني جئت إليكم كصديق ... لا كحليف...

وفرق كبير بين أن يكون الإنسان صديقا وبين أن يكون حليفا....

فبين الأصدقاء كثير من العتاب والمصارحة، وليس من الضـــروري أن يتفــق الأصدقاء في كل رأي أو أن يتحدوا في كل موقف...

أما الحليف فهو ذلك المنحاز تماما.. أي الذي أعارهم عينيه، فلا يــرى بهمــا. وأعطاهم أذنيه فلا يسمع بهما.. إنما هم الذي يرون له ويســمعون لــه ويفكــرون لــه ويدبرون في النهاية...

ولذلك لم يفلح دالاس في أن يفهم الكثير من القضايا الدولية، والقضية المصرية والعربية.

أما الخطأ فليس في أن هذا الرجل عاجز عن الفهم، ولكن في إن نقطة البدايــة، هي في نفس الوقت هي نقطة الخلاف... أي هو يبدأ الطريق معك بأن يتجه إلى وجهة أخرى.. ومعنى ذلك أنه لا يمضي وقت طويل على السير معه حتى يكون كل واحد في طريق.. وحتى يغيب كل من يمشي معه عن عينيه وعن أذنيه..

وسوف يهتم المؤرخون الأمريكان كثيرا جدا بهذا الأثر البليغ الذي تركه دالاس في السياسة الأمريكية وفي السياسة العالمية.

و إذا كان الأمريكان قد كسبوا كثيرا من العصا الطويلة التي كــان يلــوح بهــا دالاس في الشرق والغرب، فإن هذا العصا قد ألقت ظلا كثيفا على كثير من المشــاكل. فغابت عن أمريكا، أو غابت عنها أمريكا...

وبسبب دالاس ووزراء آخرين غيره، ظهر كيسنجر طرازاً مختلفا من الساســة الأمريكان.

صحيح أن مسرح الأحداث قد تغير تماما وتقاربت القوى العظمى في عالم الذرة وفي عالم الفضاء. فروسيا قد أطلقت أول قمر صناعي سنة 1957.ولحقتها أمريكا.. أمريكا ثم تتابعت الدولتان في السباق الرهيب نحو الكواكب الأخرى. وأنزلت أمريكا أول إنسان على القمر... وأطلقت سفنا أخرى إلى المريخ والزهرة.. تعادلت القوتان العظميان. وإن كانت التكنولوجيا الأمريكية أكثر تفوقا... وكان من الضروري أن

يختلف أسلوب كيسنجر عن أسلوب دالاس في التلويح بالرعب.. أو التلويح بالتعايش في ظل الرعب.. أو في التوفيق أو الوفاق بين الدولتين (الأعظم والأقوى) على نحو ما كان في القرن التاسع عشر بين روسيا وفرنسا.. أو بين فرنسا وبريطانيا فالتاريخ يعيد نفسه بشكل ما...

وسوف يتناول المؤرخون عندنا خطوات كيسنجر ويتوقفون عندها طويلا وعميقا، فقد دخل هذا الرجل في قلب المشكلة العربية اليهودية. دخلها قبل أن يجيء إلينا. ودرسها وتعمقها تماما. وقد ساعده في ذلك أنه تخصص في السياسة الدولية. أو في الاستراتيجية الدولية. والأمن القومي.

وقد اختلف كيسنجر منذ البداية مع السياسة التي سادت الفكر الأمريكي أي سياسة حافة الهاوية.. أو حافة الحرب...

وقد صدرت لكيسنجر كتب عميقة وإن لم يكن من السهل قراءاتها أي ليس من السهل على الذي لم يتمرس في السياسة، ويسبح في المياه الدولية بمشاكلها ومتاعبها وانفجاراتها أن يستمتع بها...

فله كتاب عن "الأسلحة النووية والسياسة الخارجية" . هذا الكتاب كان من أكثر الكتب انتشارا عند ظهوره في سنة 1957. ولكن .. كان من أقل الكتب شعبية في ذلك الوقت أيضاً. وفي هذا الكتاب جاهر بعدائه الشديد لسياسة "الردع المكثف" التي نادى بها دالاس...

وصدر لكيسنجر كتاب آخر اسمه "ضرورة الاختيار" في سنة 1960 . وقد تأثر به الرئيس كنيدي كثيراً..

ومن أهم كتب كيسنجر وأمتعها أيضا كتاب عن توازن القوى في أوائل القرن التاسع عشر، تناول فيه اثنين من ألمع الساسة في ذلك الوقت هما: مترنيخ الوزير النمساوي وكاسلري الوزير البريطاني في عصر نابليون.

والكتاب عنوانه "عالم أعيد ترتيبه- مترينيخ وكاسلري ومشاكل السلام 1812-1822). وهذا الكتاب لابد أن تكون له أهمية خاصة. لأن له دلالة خاصة عند كيسنجر نفسه، الذي له دور إيجابي عندنا بسبب ما قام به من خطوات قبل وأثناء وبعد حرب أكتوبر ومحاولات تحقيق السلام بعد ذلك...

وقد لاحظ كثيرون من المتخصصين أن كيسنجر قد اتخذ له مثلا أعلى ذلك الرجل النمساوي مترنيخ الذي استطاع أن يتحكم في السياسة الدولية في أوروبا أوائل القرن التاسع عشر. وأن يقف بين قيصر روسيا الكسندر وإمبراطور فرنسا نابليون.. وبين النمسا نفسها وبروسيا..وأن يحاول أن يحقق توازي القوى. وأن ينشر السلام بشكل ما...

وقد أعجب كيسنجر بهذا الرجل إعجابا شديداً، حتى ليقال: أنه يطبق بالحرف ما فعله مترنيخ...

وهذه عبارة مبالغ فيها، لأن التاريخ إذا كرر نفسه فإنه لا يعيد نفسه بالضبط ..وإذا حاولت – الآن- أن أقلب في بعض الكتب وأرجع إلى سطور معينة اخترتها فإنني أمارس عادة قديمة لأنني أحب التاريخ وأطيل النظر في صفحاته، وأطيل السمع لصوت عجلاته قديما وحديثا..

وما دمت أتحدث عن دول كيسنجر في المنطقة، وهو الدور الذي أغضب السوفيت حتى اليوم، فسوف أتوقف عند بعض العبارات الكثيرة جدا التي بهرت كيسنجر. لتكون هذه العبارات خصوصا من معالم الصورة التي أرسمها لكيسنجر أو لدور كيسنجر في فهم القضية. وأرى أن هذه خطوة ضرورية .. لأن (العامل النفسي) كما ذكرت كان شرطا (هاما) للنجاح .. أي لابد من دراسة نفسية أطراف النزاع لتكون وسيلة لإضاءة جوانب هذه القضية المعقدة... ولذلك سوف استعين بشخصية مترنيخ على فهم كيسنجر، واستعين بفهم شخصية كيسنجر على فهم خطواته ومحاولاته التي أدت في النهاية إلى إعجابي به وصداقتي له..

مثلا يقول مترنيخ: أن السياسة مثل أية مسرحية، إذا ارتفع الستار بدأت التمثيل، لا محالة. وإذا حاول إنسان أن يوقف التمثيل بعد ارتفاع الستار كان إنسانا مخبولا، لأن التمثيل سوف يمضي في طريقه، سواء بالممثلين أنفسهم، أو بالمتفرجين الذين سوف يصعدون على خشبه المسرح .. والأذكياء لا ينظرون إلى ذلك على أنه جوهر المشكلة.

فالمشكلة قد بدأت قبل ذلك: هل نفتح الستار أصلا؟ هل يكون هناك متفرجون؟ هل لهذه المسرحية أية قيمة فنية؟.

ويقول أيضاً: لقد تعلمت شعوب أوروبا في العشرين عاما الماضية أهمية حجم القوات العسكرية، ومعنى الحرب والدمار. ولذلك لا يمكن خداعها فيما يتعلق بالنتائج المحتملة للأحداث الأخيرة.

وعندما يتحدث مترنيخ عن النمسا، ذلك البلد الصغير الواقع بين روسيا في الشرق وفرنسا في الغرب يقول: ليس أمام الدولة الصغيرة إلا المفاوضة. أنها وسيلتنا الوحيدة للبقاء. فإذا تفاوضنا وانهالت علينا الضربات، وجب علينا أن نبتسم أثناء ذلك. أنها لعبة الصبر... ونابليون يعتمد على أن له جيوشا قوية، وأنا أعتمد على أن أؤكد له دائما أنه ليس قويا إلى هذه الدرجة!

ويقول كيسنجر عن مترنيخ: لقد كان يعتمد على "سيولة" الموقف. أي يجب أن يكون النهر سائلا بلا جليد، ذهابا وإيابا...

ولو عدت إلى العنوان الفرعي لهذه المذكرات لوجدت أنني اخترت عن عمد: الجليد يذوب بين موسكو والقاهرة، فلا هو يلين ولا هو يذوب.

وكل ما حصرت على أن أقوم به هو أن أنفض الجليد عن الحديد.. فلم أستطع، ولا ساعدوني، أن أذيب الحديد أو الجليد، فتكون هذه "السيولة" التي ينشدها مترنيخ والتي حرص عليها كيسنجر بعد ذلك بقرن ونصف قرن...

ومما كتبه مترنيخ واستحق فعلا إعجاب كيسنجر بعد ذلك قوله: أن يقود الإنسان سفينة حطمتها العواصف عشرين عاما، وسط الأمواج والصخور وألوف العقبات

والضغوط وأن يتجه بها إلى عرض البحر، لهي قدرة هائلة ليست متاحة للكثيرين في هذه الدنيا ..

وقد علق كيسنجر على ذلك بقوله: ولكن أثبت مترنيخ بعد ذلك أن قيادة سفينة في بحر هادىء أصع من قيادتها في بحر هانج. فأمام هياج البحر تتولد قدرات الإبداع والإصرار في أعماق الإنسان، وهو يدافع عن حرصه على البقاء!

ويقول مترنيخ أيضاً: أن كثرة النجاح أرهقني، كما أرهقتني كثرة المصائب!.

وعندما يتحدث مترينخ عن أصدقائه وعن العلاقات التي بين الناس تجد فيه نبرة الآسى والحزن والتشاؤم أيضاً. يقول: أشعر أنني وسط نسيج العنكبوت وليس أصدقائي إلا مجموعة من العناكب إلى جواري. أحبهم. ولكن يجب أن نبقى معا في هذا النسيج. إن هذا النسيج له شكل جميل. ولكنه في نفس الوقت مجموعة من الخيوط الأنيقة الواهية. هذه الخيوط تصد أشعة الشمس، ولا تقوى على صد الريح

" ولكننا جميعا ارتضينا شروط الصداقة، أو شروط لعبة الصداقة. ولذلك فلم أتوقع أن ينسف الأصدقاء خيوط العنكبوت، في لحظة من لحظات الغضب... لأننا جميعا قد تمسكنا بشروط اللعبة!"..

أما أسباب عبقرية مترنيخ في نظر عاشقه كيسنجر فهي: أن لديه قدرة هائلة على فهم جوهر أية قضية أو أي موقف. وهذا الفهم يجعله قادرا على الحركة. وإذا تحرك أتجه إلى خصومه ليتغلب عليهم واحد واحدا.

يقول مترنيخ عن نفسه: كل إنسان يريد شيئاً ما، دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن ذلك. ولكني أنا أعرف ما أريد، وأعرف ما يقدر عليه الآخرون وما يعجزون عنه أيضاً. ولذلك فأنا جاهز دائماً لكل موقف.

يقول كيسنجر: أن هذه العبارة هي قمة الغرور والثقة بالنفس، ولكنها صحيحة تنطبق عليه في كل الظروف والمواقف المعقدة الصعبة...

ويقول كيسنجر: أن هذا الرجل قد نجح لا لأنه كان مقنعا في المناقشة، ولكن لأنه كان مقنعا ومفحما أيضاً.

وهذا الرجل مترنيخ يؤكد دائماً أنه شخصية لا تتكرر. بل تتشابه مع شخصيات أخرى في التاريخ. لأن التاريخ له دوائر أو له قواعد وإذا تكررت أحداثه فإنها لا تتطابق تماماً...

ولذلك يقول مترنيخ ويؤديه كيسنجر: أن الشعوب كالأفراد ينسون تجاربهم. كأن تجاربهم علمتهم الا يتعلموا. أو كأن التاريخ علمهم الا يتعلموا منه شيئاً.

ويقول أيضاً: أن حوادث التاريخ تتكرر، ولكن ليست بنفس الشكل والحجم. فالإنسان إذا رأي فيلا لأول مرة، فأنه لا يدري ما هذا الحيوان الذي أمامه.. إلا إذا كان قد رأى صورة لهذا الحيوان. في هذه الحالة فقط تصبح الصورة تجربة، ويصبح الفيل نفسه حقيقة انطبقت عليها التجربة..

ويقول: وكلمة "فيل" لا تدل على كل صفات هذا الحيوان. تماما كما أن قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن عندما رأى التفاح يسقط من الشجر على الأرض، هذا القانون لا يدل على صفات التفاح أو خصائصه.. إنما يدل هذا القانون على علاقة بين كل الأشياء التي تسقط وبين الأرض التي تسقط عليها... ونفس الشيء يمكن أن يقال في التاريخ: فنابليون ليس بالضبط هتلر.. كما أن كاسلري ليس بالضبط تشرشل ... وإنما التشابه بينهم جميعا في المشاكل والظروف التي يواجهونها...

وكذلك كيسنجر ليس بالضبط مترنيخ.. وإنما هناك تشابه بين الرجلين. وأمل كل منهما أن يحقق متوازن القوى. وأن يكون هذا التوازن عن فهم وعين ديناميكية.. أى عن حركة حتى لا تتجمد الأنهار بين الأطراف المختلفة..

ومن براعة كيسنجر أنه عرف بالضبط هذا الخلاف العنيف الطويل بين العرب وبين اليهود .. وربما أحتمى كيسنجر فى أنه يهودى .. أو تذرع بأنه يهودى أمريكى ألمانى الأصل .. وأنه بذلك يمكن إليه.. ولا يمن التضحية به.

ولكنه لم يكتف بهذه الصفات التى يمكن أن تتوافر لكثيرين، بل أعتمد على ذكائه وصبره وفهمه..

ولذلك نجح كيسنجر فى أ، يكون مستشاراً للأمن القومى لخمسة من الرؤساء الأمريكان: ايزنهاور وكنيدى وجونسون ونيكسون وفورد .. واستطاع أن يكون الرجال الثانى فى أمريكا عندما أصبح وزير لخارجية نيكسون وفورد من بعده.. ولم يحدث فى تاريخ أمريكا أن ارتفع مهاجر فى مثل هذا الوقت القصير – أى منذ سنة 1983– فأصبح فى مثل هذا المكان الرفيع.

ومن العبارات ذات الدلالة على شخصية كيسنجر أنه كثيراً ما كان يقول: ليس فى نية أمريكا أن تشترى سلاماً زائفاً على حساب أصدقائنا فالولايات المتحدة لن تضحى، وهى تعلم بمصالح الآخرين. كما أن المصالح المشتركة ليست حقيقة ثابتة جامدة.. أن المصالح فى حاجة إلى تعريف وتحجيم مستمر..

***

ومن المصادفات الغريبة فى حياتى، أن أجد فى كراسة مختومة كل صفحاتها بخاتم السجن وبتاريخ يوم 1947/10/21 عبارة لترنيخ. هذه العبارة بالإنجليزية، احتفظت بها كما هى..

وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف أين أنا، ولا ما هو طريقى، ولا كيف ينتهى بى القدر.. ولا أحد يستطيع مهما أوتى من بصيرة أو قدرة على الخيال، وأن يتصور ما الذى سوف أكون عليه بعد ثلاثين يوماً عاماً.. أو حتى بعد خمس سنوات من كتابة هذه السطور.

تقول السطور الغريبة العجيبة: أننى أملك الآن الكثير من الثراء والشباب والصحة والمجد والقوة والحب، ولو وصفت اليوم نفسى بأننى سيد، فإنما يرجع ذلك إلى المواهب التى منحنى القدر إياها.. ولكن هذه المواهب علمتنى أيضاً أن أرفع عينى إلى ما هو أسمى من السعادة..

"وإذا كانت هذه الرحلات الرائعة التى قمت بها قد أتت لى بالسلام الذى انشده والسعادة التى أتمناها، فسبب ذلك فقط أن هذه الرحلات قد علمتنى كثيراً.. وإن كانت الرحلات فى حد ذاتها ليست فى مصدر سعادتى وسلامى.

وأنا أعرف اليوم جيداً، أننى لو تجملت بالحكمة بعض الشيء لاستمتعت بحياتى، دون حاجة إلى أن يساعدنى القدر.

وأعرف اليوم أننى أكثر سعادة من الأمس، لأننى تعلمت على الأقل، أننى لم أعد فى حاجة إلى مزيد من الحظ لكى تتحرر روحى وينشرح للدنيا صدرى..

وكان شيئاً مدهشاً حقاً أن يتصور الإنسان فى الزنزانة رقم 54 أنه يمكن أن يتجاوز قيود الزنزانة وأن يرتفع فوقها ويشعر براحة النفس.

وما من شك فى أن رغبات الإنسان فى زنزانة تتحكم فى حركاته.

غير أن العقل وتجارب السنين والبساطة والقناعة هى التى تجعل الإنسان أكبر من ظروفه، وأخف وزناً ، لأنه قد تحلل من قيود رغباته. وكل رغبة هى قيد وهى عبء والرغبات قيود من حديد وزنزانة من الحجارة الباردة والظلام الداكن والصمت الرهيب.

- أو لعلى وجدت فى مثل هذه الكلمات نوعاً من التعزية أو نوعاً من التعويض.. أو المواساة .. ولا أعرف كيف عثرت على هذه العبارة ولا كيف ساقها القدر فى طريق، لكى التقطها وأسجلها وأحتفظ بها حتى اليوم؟!.

ولكن أليس من الدف العجيبة أن يجئ إلى مصر رجل مثل كيسنجر يحاول فك خيوط قضية شديدة التعقيد وأن يكتسب اطمئنان الأطرف المتنازعة، وعن طريق هذه الطمأنينة ذهاباً وإياباً، واستطاع أن يحرك الشرق الأوسط؟!

والذين تحمسوا لكيسنجر، كانوا ينظرون إلى ماضيه القريب، وكيف أنه حاول، ونجح إلى حد كبير، فى أن يحقق الوفاق بين أمريكا وروسيا.. وبين الصين وأمريكا.. وأن يقوم بحصر الحرب فى فيتنام، وأن يسحب القوات الأمريكية وينقذ أمريكا من

كارثة قومية، وتمزق عميق فى داخلها.. وأن يتقاسم جائزة نوبل للسلام مع المفاوض الفيتنامى فى باريس...

وعندما جاء كيسنجر إلى الشرق الأوسط كانت قد سبقته إنجازاته الهائلة. وطموحه فى أن يتبع السلام من داخل المنطقة. ولذلك لم يتقدم بمشروع، بل كان لديه أفكار.. أو اقتراحات أو اجتهادات..

ومع كل خطوة تقدم بها كيسنجر، تأخرنا خطوات فى علاقاتنا بالسوفيت .. ولا نزال..